٥٥ أيْنَ أهْلُ الفَضْلِ ؟

قال رسول الله ﷺ :

(إذَا جَمَعَ اللهُ الخَلائِقَ يَوْمَ القِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ :

أيْنَ أهْلُ الفَضْلِ ؟

فَيَقُومُ نَاسٌ ، وَهُمْ يَسِيرٌ ، فَيَنْطَلِقُونَ سِرَاعاً إلَى الجنّةِ

فَتَتَلَقّاهُمْ الْمَلائِكَةُ ، فَيَقُولُونَ لَهُمْ : إنّا نَرَاكُمْ سِرَاعاً

إلى الجَنّةِ ؟

فَيَقُولُونَ : نَحْنُ أهْلُ الفَضْلِ .

فَيَقُولُونَ : مَا كَانَ فَضْلُكُمْ ؟

فَيَقُولُونَ : كُنّا إذَا ظُلِمْنَا صَبَرْنَا ، وَإذَا أُسِيءَ إلَيْنَا عَفَوْنَا ،

وَإذَا جُهِلَ عَلَيْنَا حَلَمنَا .

فَيُقَالُ : ادْخُلُوا الجَنَّة ، فَنِعْمَ أجْرُ العَامِلِينَ) [1]

---

(١) أخـرجه البيهقـي في شعب الإيمان (حديث رقم : ٧٨٦٢) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، وقال : ((هذا متن غريب ، وفي إسناده ضعف والله أعلم)) .

هذا الحديث ينقلنا إلى صفة أخرى من صفات المؤمنين ، وهى صفة تُبرز لنا كيف يتعاملون مع الناس ، خاصة الجاهلين منهم والحمقى والسُّفهاء. فالعبد من عباد الله لا يدخل فى : جدال ، ولا هراء ، ولا مخاصمة مع هذا الصِّنف من الناس ، وهم كثير .

يقول الحق : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾[الفرقان]

فهم لا يلتفتون إلى حماقة الحَمْقَى ، أو سَفَه السُّفهاء ، ولا يشغلون بالهم ووقتهم وجهدهم بالاشتباك مع السُّفهاء والحمقى فى جدال أو عِرَاك ، ويترفَّعون عن المهاترة مع المهاترين اطائشين ، لا عن ضعف ، ولكن عن ترفُّع ، ولا عن عجز إنما عن استعلاء ، وعن صيانة للوقت والجهد أنْ يُنفقا فيما لا يليقُ بالرجل الكريم المشغول عن المهاترة بما هو أهمّ وأكرم وأرفع .

والجاهلون فى الآية هنا هم السفهاء والحمقى الذين لا يَزِنُون الأمور ، ولا يعقلون كلامهم ، فكلُّ مَنْ لا يضع كل كلمة يقولها فى وضعها الصحيح الذى يَصلُح به أمر الناس فهو جاهل .

وهؤلاء يجب الإعراض عنهم ، والردُّ عليهم بالحسنى كما هنا ﴿ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان] ، أو عدم الردِّ عليهم ، كما فى قوله تعالى :

﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الأعراف]

فالحقُّ سبحانه يرشدنا إلى مَكْرُمَة من مكارم الأخلاق فى تعاملنا مع مَنْ حولنا من الناس ، بأنْ نُعرِض عن الجاهلين الذين يعتقدون قضية مخالفة للواقع ويتعصَّبون لها ، هذا الجاهل لا يجب أنْ نماريه أو نجادله ؛ لأن

الجدل معه لن يؤدى إلى نتيجة مفيدة .

فلا تكُنْ مثل الجاهل السفيه ، وتردُّ عليه بمثل قوله ، فجواب ما يُكْره السكوتُ ، وإلا فلو سفهْتَ عليه كما سَفِه عليك فقد صِرْتَ مثله تماماً ، فلا تنسى أن هناك فَرْقاً بينك وبينه يجب أنْ تحافظ عليه ، حتى لا تخرج من حيّز " عباد الرحمن " .

أما إذا اشتدتْ سفاهته عليك ، وطغى وبَغَى ، فيُبـــاح لك أنْ تردَّ العدوان بمثله ؛ لأنه قد يظن أن السكوت ضَعْف ، فعليك أنْ تُبيِّن له أن هذا ليس ضَعْفاً منك ، ولكنه كَرَم خُلُق .

ومعنى ﴿ قَالُوا سَلَامًا ﴾ أى : سلام المُتَاركة ، فإذا جَهل عليك إنسان وسَبَّك بلسانه حلمتَ عليه ، وقلتَ له : أنا لن أردَّ عليك . وتركته وانصرفتَ .

وسلام المتاركة غير سلام التحية الذى تلقيه على مَنْ يقابلك حين تبدؤه بالسلام ، وقد يتحول سلام المتاركة أحياناً إلى سلام التحية للانصراف ، مثلما قال سيدنا إبراهيم لعمه آزر بعد أنْ دَعَاهُ إلى الإسلام ، فأبَى ولم يقتنع ، فانصرف عنه ، وقال له : ﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ۖ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ [مريم]

فلا جدالَ ولا أذى ، ولا ردَّ للتهديد والوعيد ، سأدعو الله أنْ يغفرَ لك ، فلا يعاقبك بالاستمرار فى الضلال وتولّى الشيطان ، بل يرحمك فيرزقك الهدى ، فلن أقابلك بمثل ما قلتَ ، ولن أُغلِظَ لك ، أو ينالك منّى أذىً ، أو أقول : أفّ .

فقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان] أى : إذا سَفِه عليهم الجُهَّال بالقول السىء لم يقابلوهم عليه بمثله ، بل يَعْفُون ويَصْفحون ، ولا يقولون إلا خيراً ، كما كان رسول الله ﷺ [1] لا تزيده شدة الجاهل عليه إلا حِلْماً .

كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القصص]

وقد سبَّ رجلٌ رجلاً فى حضرة رسول الله ﷺ ، فجعل المَسْبُوب يقول: عليك السلام ، فقال رسول الله ﷺ : ((أما إن مَلَكاً بينكما يذبُّ [2] عنك كلما شتمك هذا)) [3] .

والحِلْم والصبر عن أذى الجاهلين دلالة على كمال العقل ، وانكسار قوة الغضب ، وخضوعها للعقل ، وقد حَثَّ رسول اللهﷺ على خُلق الحلم ، فقال ﷺ : ((ابتغوا الرِّفْعة عند الله . قالوا : وما هى يا رسول الله ؟ قال : تَصِل مَنْ قطعك ، وتعطى مَنْ حرمك ، وتَحْلُم عَمَّنْ جهل عليك)) [4] .

---

(١) ممـــا يُروى فى هذا عن النبى ﷺ أن أنس بن مالك قال : إن النبى ﷺ أدركه أعرابى فأخـــذ بـــردائه ، فجـــبذه جبذة شديدة ، فنظرتُ إلى عنق رسول الله ﷺ وقد أثرت فيه حاشـــية الـــرداء من شدة جبذته ، ثم قال : يا محمد مُر لى من مال الله الذى عندك ، فالـــتفتَ إليه الرسول ، فضحك وأمر له بعطاء . حديث صحيح . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٠ / ٥٨٠٩ _ الفتح) ومسلم فى صحيحه (ج ٢ _ الزكاة / ١٢٨)

(٢) الذبُّ : الدفع والمنع . فلان يذب عن حريمه : يدفع عنهم .[اللسان _ مادة : ذبب]

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥ / ٤٤٥) من حديث النعمان بن مقرن ﷺ .

(٤) أخـــرجه ابن عدى فى " الكامل " (٧ / ٩٦) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما. وأورده أبـــو حامد الغزالى فى " إحياء علوم الدين " (٣ / ١٧٧) من حديث أبى ==

وقد جاء رجل إلى النبى ﷺ يشكو ذوى قرابته ، فقال : يا رسول الله ، إن لى قرابة أَصِلُهم ويقطعونى ، وأُحْسِنُ إليهم ويُسيئون إلىَّ ، ويَجْهلون علىَّ، وأحلم عنهم ، فقال له ﷺ : ((إنْ كان كما تقول فكأنما تسفُّهم المَلَّ [1] ، ولا يزال له معك من الله ظهير ما دُمْتَ على ذلك)) [2] .

وقد قال رسول الله محمد ﷺ لأصحابه يوماً : ((أيعجز أحدكم أن يكون كأبى ضمضم ؟ قالوا : وما أبو ضمضم ؟ قال : رجل ممَّنْ كان قبلكم ، كان إذا أصبح يقول : اللهم إنّى تصدَّقتُ اليوم بعِرْضى على مَنْ ظلمنى)) [3] .

وانظر إلى هذا الصحابى الذى وفد على النبى ﷺ ، فأناخ راحلته ، وربطها حتى لا تذهب منه ، ثم طرح عنه ثوبين كانا عليه ، ثم أخرج من عَيْبته [4] ثوبين حسنين فلبسهما ، كل هذا والنبى ﷺ يرى ما يصنع .

ثم أقبل الصحابى يمشى إلى رسول الله ﷺ ، فقال عليه السلام : إنَّ فيك يا أشج [5] خُلُقيْنِ يحبهما الله ورسوله . قال : ما هما بأبى أنت وأمى ،

== هريرة ، وعزاه الحافظ العراقى للحاكم والبيهقى .

(١) المـلّ : الرماد الحار الذى يحمى ليدفن فيه الخبز لينضج ، أراد إنما تجعل الملة لهم سُفوفاً يستفونه ،أى أن عطاءك إياهم حرام عليهم ونار فى بطونهم . [لسان العرب _ مادة : ملل] .

(٢) أخـرجه الإمـام أحمـد فى مسنده (٢ / ٣٠٠ ، ٤١٢ ، ٤٨٤) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٥٥٨) كتاب البر والصلة . من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٣) أورده الغزالـى فـى الإحـياء (٣ / ١٥٤) ، قـال الحافظ العراقى فى تخريجه: ((أخـرجه البـزار ، وابن السنى فى اليوم والليلة ، والعقيلى فى الضعفاء من حديث أنس بسند ضعيف ، وذكره ابن عبد البر من حديث ثابت مرسلاً عند ذكر أبى ضمضم فى الصحابة . قلت : وإنما هو رجل ممن كان قبلنا ، كما عند البزار والعقيلى)) .

(٤) العيبة : وعاء من جلد ، يكون فيه المتاع . والعيبة : ما يُجعل فيها الثياب . [اللسان _ مادة : عيب] .

(٥) هو المنذر بن عائذ ، وقد كان فى وفد عبد القيس الذين وفدوا على رسول الله ﷺ ==

يا رسول الله ؟ قال: الحلْم والأناة . ولأنه حليم ، ولأنه مُتَأنٍّ ، سأل النبىَّ ﷺ: خُلُقَانِ تَخلَّقتُهما ، أم خُلُقَان جُبِلْتُ عليهما ؟ فقال ﷺ : ((بل خُلُقان جَبلَكَ الله عليهما " . فقال : الحمد لله الذى جَبَلَنى على خُلُقين يحبهما الله ورسوله))[1].

ومع أن للطباع الأصيلة فى النفس دَخْلاً فى أنصبة الناس من الحِدَّة والهدوء ، والعَجلة والأناة ، والكَدَر والنقاء ، إلا أن هناك ارتباطاً مؤكداً بين ثقة المرء بنفسه وبين أَنَاته مع الآخرين ، وتجاوزه عن خطئهم .

فالـرجل العظـيم حقًّا كلما حلَّق فى آفاق الكمال اتسع صدره ، وامتدّ حِلْمـه ، وعذر الناسَ من أنفسهم ، والتمس المبررات لأغلاطهم ، فإذا عَدَا عليه غِرٌّ يريد تجريحه نظر إليه من قمته ، كما ينظر الفيلسوف إلى صبيان يعبثون فى الطريق ، وقد يرمونه بالأحجار .

ويعطينا الحق سبحانه نماذج لعباد الرحمن أعرضت عن الجاهلين الذين تسافهوا عليهم ، فعباد الرحمن ليسوا مجرد مُثُل نظرية لم تتحقق فى الحياة ، بل هى نماذج عاشتْ بين الناس ، قديماً وحديثاً ، وستعيش فى قادم الأيام .

فانظر إلى قوم نوح عليه السلام ، الذين سبُّوا نوحاً واتهموه بالضلال ، يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ

== من البحرين ، سماه رسول الله ﷺ أشح ؛ لأنه كان بوجهه شجٌّ .

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤ / ٢٠٦) ، وأبو داود فى سننه (٥٢٢٥) .

﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأعراف]

فاتهموه بأنه ضَالٌّ مُخرَّف ، قد فسد عقله ، إذ كيف يأمرهم بعبادة إله واحد بل إنه يتجاوز هذا ، فيحذرهم وينذرهم عذابَ يوم عظيم ، وهذا شيء لم يقبلوه ؛ لأن فطرتهم كانت قد فسدتْ بعبادتهم : وَدّاً [1] ، وسُوَاع ، ويَغُوث ويعوق ، ونَسْراً ، فكانوا سفهاء مع نوح ، واحتقروه واحتقروا دعوته .

ما أعظمَ حِلم نوح عليه السلام وصبره على حماقات قومه عليه عندما كان يصنع السفينة فى أرض ليس بها ماء وذلك بأمر الله عزَّ وجلَّ يقول تعالى :

﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [هود]

فقد أخذ نوح - عليه السلام - يصنع السفينة تحت أمر الله وَوَحْيه ، وجعل قومه يمرُّون عليه فيهزأون به . ويسخرون منه ، ويقولون له : يا نوح ، قد كنتَ بالأمس نبياً ، واليوم قد صِرْتَ نجاراً ! ويجتمعون عليه وهم يضحكون، وهو جادّ - عليه السلام - فى عمله ، فكان يجيبهم بقوله :

---

(١) هذه أسماء أصنامهم التى كانوا يعبدونها من دون الله . قال محمد بن قيس : كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صورناهم كان أشوقَ لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم . فصوَّروهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون دبّ إليهم إبليس ، فقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم يُسقون المطر فعبدوهم . وقال ابن عباس : صارت الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب بعد : أما ودّ فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سُواع فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ، ثم لبنى غطيف بالجرف عند سبأ ، أما يعوق فكانت لهمدان وأما نسر فكانت لِحمْيَر لآل ذى كلاع . [تفسير ابن كثير ٤ / ٤٢٦] .

﴿ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [هود]

فقد استعمل المشركون معه صنوف الاستهزاء والبلاء ؛ ليصدُّوه عن دعوته ، فلم يجدوا منه إلا كلَّ صبر وثبات ، اتهموه بأنواع الاتهامات ، وافتروا عليه أنواع الافتراءات ، فما زاده ذلك إلا إيماناً وتسليماً ، وصَبْراً وجهاداً ، فكان من أُولى العزم الصابرين .

فقد كان جهاد نوح عليه السلام وصبره على إيذاء قومه بما لا طاقةَ لأحد على تحمُّله ، ولا قدرةَ له عليه ، بل دعاهم ألفَ سنة إلا خمسين عاماً ، فقد أقام بينهم : داعياً ، مُذكّراً ، ناصحاً ، سالكاً جميع الطرق الحكيمة لإنقاذهم من الضلال ، وإبعادهم عن عبادة الأصنام والأوثان ، فلم يفلح معهم أبداً .

وكانت دعوته لهم ليلاً ونهاراً ، وسِرّاً وجهاراً ، و مع هذا لم تَلِنْ قلوبهم ، بل قابلوا الإحسانَ بالإساءة ، واللطفَ بالشدة ، ومالوا عليه بالضرب والأذى وهو لا يفتأ يقول : اللهم اغفر لقومى ، فإنهم لا يعلمون .

وقد مدح الحق سبحانه أولئك الذين ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾[القصص]

فهذه صفة من صفات المؤمنين وهى الإعراض عن اللغو من الكلام والفعل والتصرُّف والسلوك ، ومن صفاتهم عدم ابتغاء الجاهلين الحمقى السُّفهاء الذين يبحثون عن زلاَّتِ الناس وأخطائهم ، للسخرية منهم والاستهزاء بهم .

واللغو فارغ الحديث الذى لا طائلَ تحته ، ولا حاصل وراءه ، وهو يقتل الوقت دون أنْ يضيف إلى القلب أو العقل زاداً جديداً ، ولا معرفة مفيدة ، وهو البذىء من القَوْل الذى يفسد الحِسّ واللسان .

والقلوب المؤمنة لا تلغو ذلك اللغو ، ولا تستمع إليه ، ولا تلتفت إليه ، لأنها مشغولة بتكاليف الإيمان ، مرتفعة بأشواقه ، متطهرة بنوره .

والمؤمنون إذا سمعوا تسافه الجاهلين عليهم لا يهتاجون ولا يغتاظون ، ولا يردُّون عليهم بمثله ، بل يتركون الجدال معهم ، وإنْ كانوا مُحقّين ، ولكن يتركونهم فى موادعة وسلام ، فى أدب جَمّ ، وترفُّع راقٍ ، دون تكبُّر ، وفى دعاء بالخير ، ورغبة فى الهداية .

فلا مشاركةَ للجهال ، ولا مخاصمةَ ، ولا ضيقَ بهم ، بل سماحة ووُدّ وترفُّع وحُب للخير .

ولاتصاف المؤمنين بهذه الصفة ثمرة يجدون مردودها فى حياتهم السلوكية يقول تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت]

فليس للمؤمن أنْ يردَّ السيئةَ بالسيئةِ ، بل عليه أن يردَّ السيئةَ بالحسنةِ ، فالصبر على جهل الجاهلين ، وحماقة الحَمْقى ، وسَفَهِ السفهاء ، والتسامح معهم فى غير ضَعْف ، والاستعلاء على رغبة النفس فى مقابلة الشرّ بالشرّ ، يردُّ النفوس الجامحة إلى الهدوء والثقة ، فتنقلب الخصومةُ ولاءً ، والشدةُ لِيناً والهياج إلى وداعة ، والغضب إلى سكينة ، والتبجّح حياءً .

فبكلمة طيبة ، ونبرة هادئة ، وبسمة حانية فى وجه خَصْمك الغاضب ،

يتحول إلى وليّ نصير حميم ، غير أن تلك السماحة تحتاج إلى قلب كبير يعطف ويسمح وهو قادر على الإساءة والرد ، تحتاج إلى صبر جميل ، وهى درجة عالية . يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فصلت]

أى : لا يُلقَّى هذه المنزلة ، أى منزلة مقابلة مَنْ أساء إليه بالإحسان ، إلا مَنْ صبر ، وكان ذا حظٍّ عظيم أى نصيب وافر العطاء ، لأنه كبت نفسه فيقول له الحق سبحانه : أنت كبتَّ نفسك التى بين جنبيك من أجلى ، فأنا سأجعل نهاية هذا الأمر خيراً لهذه النفس ، فلا يُلقَّى الدَّفْع بالتى هى أحسن إلا الذين صبروا على الأذى .

ويعطينا الحق سبحانه مثلاً حياً على تسافه الجاهلين والحمقى والسفهاء على المؤمنين الملتزمين بمنهج الله ، فيقول تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [المطففين]

فالمنحرف حين يرى المستقيم يعرف أنه كمنحرف لم ينجح فى أنْ يضبط حركته على مقتضى التكليف الإيمانى لـــ " افعل " و " لا تفعل " ، أما المؤمن الملتزم فقد استطاع أنْ يضبط نفسه ، وساعة يرى غير الملتزم إنساناً آخر ملتزماً ، فإنه يحتقر نفسه ، ويقول بينه وبين نفسه حَسَداً للمؤمن :

لماذا؟ وكيف استطاع هذا الملتزمُ أنْ يقدر على نفسه ؟

ويحاول المنحرف أنْ يأخذ الملتزم إلى جانب الانحراف ، وعندما لا يستطيع جَذْب الملتزم إلى الانحراف فهو يسخر منه ويهزأ به ، ويحاول أنْ يحتالَ عليه ليأخذه إلى جانب الانحراف .

وهذا ما يحدث الآن عندما يرى أهل الانحراف إنساناً مؤمناً ذا استقامة، فيسخرون منه بكلمات كالتى نسمعها " خذنا على جناحك " ، أو يحاولون النَّيل من إيمانه ، وعندما يعود أهل الانحراف إلى أهلهم ، فهم يروون بتندُّر كيف سخروا من المؤمنين ، وكأنهم يحققون السعادة لهؤلاء الأهل بحكايات السخرية من الإنسان المؤمن .

ولذلك يجب على المستقيمين أنْ ينتبهوا جيداً إلى أن شياطين الإنس لن يتركوهم فى طاعتهم ، بل إنهم سيحاولون أن يستميلوهم ؛ لأنه يعزُّ عليهم أنهم لا يقدرون على أنفسهم ، ويحزّ فى نفوسهم أكثر أن يجدوا بشراً مثلهم قد قدر على نفسه واستقام .

لذلك يقولون : هيا نكون كلنا معاً فى المعصية ، حتى لا يرفع أحدٌ رأسَهُ على الآخر ، فلنكُنْ كلنا كذابين حتى لا يوجد فينا واحد صادق يُذلنا ، والكذاب كلما رأى الصادق يشعر أن هناك حربةً تنغرز فى قلبه ، والخائن ساعةَ يرى الأمين تكون الرؤية حَرْبةً تنزل فى قلبه ، فيريد أن يكون الكل مثله .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ فَكِهِينَ ۝ ﴾ [المطففين] أى : مسرورين فرحين وهذا دليل على لُؤمهم ورذالة طباعهم ، فلم يكتفوا بالاستهزاء ، وإنما يحكونه ويتبجَّحون به .

فليت الأمر توقَّف عند حَدِّ السخرية ، إنما تعداه إلى أنْ يضحكوا من أهل الإيمان ، ويُضْحِكوا أهلهم ، وسخرية أهل الباطل من أهل الحق موجودة فى كل زمان ، وحتى الآن نرى مَنْ يسخرون من أهل الاستقامة والدين والورع ويتندَّرون بهم .

فعندها يعرف المؤمن أن الضحكة التى ضحكها الكافر القوى من المؤمن الضعيف ، أو غَمْزَه ، أو لَمْزه ، أو عندما استهزأ به ، وسخر منه ، وتهكَّم عليه ، كانت له سَلْوى ومعيناً له على الصبر ، وتحمُّل ما يلاقيه من إيذاء ؛ لأن الله الذى سيجازيه يرى ما يحدث له ويَعده ويُحصيه .

فالحق - سبحانه وتعالى - حينما عرض هذه الصورة فى الضحك بهم والغمز حين المرور ، ولقاء الأهل فى سرور مما صنعوا بالمؤمنين ، يقول للمؤمنين تعزيةً لهم وتثبيتاً لقلوبهم :

إن كل هذه الأمور على مَرْأىً ومَسْمع منى ، ومعنى ذلك أنه لا يضيع عنده شىءٌ .

فالمؤمن عندما يسمع هذا ويعرف أن الله يرى كل شىء من أفعالهم وجرائمهم ويحصيها عليهم ، يطمئن على نفسه ، ولا يحزن من سخرية هؤلاء المجرمين ، بل هو الذى يسخر منهم .

وبعد ذلك يُوضِّح الحق أنه فى الآخرة سيجازيهم بمثل ما عملوا ، فهم سخروا من المؤمنين ، وضحكوا منهم ، واستهزأوا بهم ، فالحق سبحانه يجازيهم فى الآخرة من جنس ما عملوا ، فهم استهزأوا وضحكوا ضحكاً وسخروا سخريةً لا دوامَ لها .

فالله سبحانه وتعالى يقلب الأمر فى الآخرة ، فيجعل المؤمنين يسخرون من الكافرين ويضحكون منهم ، كما سخروا منهم فى الدنيا ، لكن هذا الفرح والضحك سيكون مسألة خالدة ؛ لأنهم فى نعيم دائم ، والكفار فى عذاب مقيم.

قال تعالى : ﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [المطففين]

أى : أنه فى يوم القيامة يفرح المؤمنون بنعيم الجنة الذى جازاهم الله به ، ويفرحون بما أصاب الكفار الذين آذوهم وسخروا منهم فى الدنيا ؛ لأن الله انتقم منهم وأدخلهم النار .

فمَنْ يعمل هذه العملية ويجعلكم تسخرون من الكفار وتضحكون منهم فى الآخرة ، هل استطاع أنْ يثيب الكفارَ ويُجازيهم عما فعلوه بكم فى الدنيا؟

فاليوم يعنى يوم القيامة ، وهو يوم عظيم ، يقوم فيه الناس لربِّ العالمين ، وهو يوم الحساب والفَصْل والجزاء والأهوال ، حينئذ يضحكون منهم كما ضحكوا هم فى الدنيا ، ولكن مع الفارق ، فَضَحِك الكفار مؤقت وسخريتهم زائلة ، أما ضَحِك المؤمنين فهو دائم وفرحهم خالد .

﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [المطففين]

ماذا ينظرون ؟ ينظرون إلى الكفار وما حَلَّ بهم من عذابٍ ، جزاءَ كفرهم واستهزائهم وسخريتهم بالمؤمنين ، فقد كان فى الدنيا مرورَ ذليل ، ومرور مُضطهد ، ومرور ممقوت ، أما اليوم فقد تغيَّر الحال ، فالمؤمنون جالسون على الأرائك يتمتعون بالنعيم الذى هم فيه ، وينظرون إلى حال الكفار وما حَلَّ بهم من ذِلَّة وعذاب مهين وسخرية ، مثلما كانوا يفعلون بالمؤمنين .

لذلك كان من عباد الله أولئك الذين إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ، لأنهم يعلمون أن هؤلاء الجاهلين من الحمقى والسفهاء تغيب عنهم حقائق الدنيا والآخرة ، ولا يعلمون من الحياة إلا الأمورَ الظاهرة فقط ، فلا يعلمون بواطن الأمور ولا عواقبها .

ويصف الحق سبحانه أولي الألباب ، فيقول : ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الرعد]

والصبرهو تحمّل متاعب تطرأ على النفس الإنسانية لتُخرجها عن وقار استقامتها ونعيمها وسعادتها ، وكل ما يُخرج النفسَ الإنسانية عن صياغة الانسجام في النفس يحتاج صبراً .

والصبر يحتاج صابراً هو الإنسان المؤمن ، ويحتاج مصبوراً عليه ، والمصبور عليه في الأحداث قد يكون في ذات النفس ، كأنْ يصبرَ الإنسان على مشقة التكليف الذي يقول ((افعل)) و ((لا تفعل)) .

فالتكليف يأمرك بترك ما تحب ، وأن تنفذ بعض ما يصعب عليك ، وأن تمتثل بالابتعاد عما ينهاك عنه ، وكل هذا يقتضي مجاهدة من النفس ، والصبر الذاتي على مشاق التكليف .

وهذا صبر الذات على الذات ، ولكن هناك صبر آخر ، صبر منك على شيء يقع من غيرك ، ويُخرجك هذا الشيء عن استقامة نفسك وسعادتها، وهو ينقسم إلى قسمين : قسم تجد فيه غريماً لك ، وقسم لا تجد فيه غريماً لك .

فالمرض الذي يُخرج الإنسان عن حيِّز الاستقامة ويسبب لك الألم ليس لك فيه غريم ، لكنك تجد الغريم حين يعتدي عليك إنسانٌ بالضرب مثلاً ، ويكون هذا الذي يعتدي عليك هو الغريم لك .

وكل صبر له طاقة إيمانية تحتمله ، فالذي يقدر على شيء ليس له فيه غريم يكون صبره معقولاً بعض الشيء ، لأنه لا يوجد له غريم يهيج مشاعره ، أما صبر الإنسان على ألم أوقعه به مَنْ يراه أمامه فهذا يحتاج إلى قوة ضبط كبيرة كي لا يهيج الإنسان ويفكر في الانتقام .

ويهمنا هنا الحديث عن الصبر على تسافه الآخرين عليك أو اعتدائهم عليك بسبٍّ أو ضرب أو إيذاء ، فوجود الغريم هنا يثير حفيظتك ويهيج غضبك ويدعوك إلى الانتقام كلما رأيته ، فالصبر في هذه أصعبُ ، وحَمْل النفس عليه يحتاج إلى توكيد كما في قوله تعالى :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى] ، فاستعمل هنا لام التوكيد ، لأن الصبر هنا شاقٌّ ، والفرصة متاحةٌ للشيطان ليُؤلب القلوب ويثير الضغائن والأحقاد .

ويُرغِّبنا الحق سبحانه وتعالى في عدم الحقد والعفو عن مثل هذا الغريم ، فيقول : ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران] ، فهنا ثلاث مراحل : الأولى : كَظْم الغيظ . والثانية : العفو . والثالثة : أن تحسن فترتقي إلى مقام مَنْ يحبهم الله وهم المحسنون .

والحق سبحانه يعالج هذه المسألة ليُصفي النفس ويمنع ثورتها ، فيقول:

﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الشورى] ، لتقف النفس عند حدِّ الرد بالمثل ، ثم يرقِّي المسألة ويفتح باباً للعفو : ﴿ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ، وقال في موضع آخر : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [النحل]

فالحق سبحانه وتعالى يُحدثنا عن العفو والإحسان في المصيبة التي لك فيها غريم ، ويبين لنا أنك إذا أخذتَ حقك الذي قرره لك ، فقد أرحتَ نفسك ، لكنك تكون قد حرمتها والأجر الذي تكفَّل الله لك به إنْ أنت عفوتَ .

وكأن الحق تبارك وتعالى يريد أن يولد من أسباب البغضاء أسباباً للولاء، فالذي كان من حقك أن تقتله ثم عفوتَ عنه أصبحت حياته ملكاً لك ، فهل يفكر لك في سوء بعدها ؟

لذلك يُعلمنا ربنا : ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت]

وأذكر أنني جاءني مَن يقول : والله أنا دفعت بالتي هي أحسن مع خصمي ، فلم أجده ولياً حميماً كما قال الله تعالى . فقلتُ له : عليك أن تراجع نفسك ، لأنك ظننتَ أنك دفعتَ بالتي هي أحسن ، لكن الواقع غير ذلك ، ولو دفعتَ بالتي هي أحسن لَصدق الله معك ، ورأيتَ خصمك ولياً حميماً ، إنما أنت تريد أن تجرب مع الله ، والتجربة مع الله شكٌّ .